

## تيمورلنك القرن الحادي والعشرين

ناهض منير الرئيس

بينما كنت أقرأ فصولاً من تاريخ دولة المماليك التي حكمت بلاد مصر والشام . بما في ذلك فلسطين . مدة مائتين وخمس وسبعين سنة طوال ، وكان جورج بوش الصغير يدور في بلداننا العربية دورته المشؤومة ، ثم عجل الاحتلال الإسرائيلي أثناءها بمذبحته في حارة الزيتون بمدينة غزة صباح الثلاثاء الماضي بغية ( تطبيع ) الإخوة العرب الذين يزورهم الرئيس الأمريكي طبيعاً على الحفاوة بالقاتل الأصلي صاحب الإشارة المختص لإطلاق جميع المذابح ، وغمر إخوتنا وجهه بالقبلات والبشاشة العربية أثناء تفجر الدماء من جروح إخوتهم الفلسطينيين .. وكنت أتفكر في وضعنا الفلسطيني المنقسم ووضعنا العربي المخترق ، وصلت إلى الصفحات التي تتحدث عن عهد السلطان فرج بن برقوق وأخذت أقرأ وأقارن .. ولو أن في المقارنة ظلماً للمماليك القدامى ! الذين لم تخل عهود بعضهم من وقفات عز وشرف .

من هؤلاء السلطان المملوكي برقوق البطل بمعنى الكلمة الذي استجد به أحمد بن أويس صاحب بغداد لما غزا تيمورلنك بغداد واحتلها . فألجأ برقوق ابن أويس وحفه بالإعزاز والمهابة وأمدّه بجيش حارب جيش المغول واسترد بغداد . واستطاع برقوق طيلة حياته أن يرد بأس الطامعين عن مملكته . ولكن خلفه ولده فرج الذي لم يكن على قدر الحمل الثقيل . وكانت المشكلة الأعمق جذراً تكمن في ( النظام ) الذي نشأ عليه مجتمع نخبة المماليك أركان الحكم لكثرة تنازعاتهم ومكائدهم وصراعاتهم على السلطة : تلك الصراعات التي سجلت في عهد المماليك البحرية ( الأتراك )

مقتل تسعة سلاطين وخلع عشرين من أصل أربعة وعشرين سلطانا ،  
وسجلت في عهد السلاطين البرجية ( الشركس ) مقتل ثلاثة وخلع ثمانية  
عشر واختفاء أربعة سلاطين من أصل اثنين وعشرين .

لم يعد تيمورلنك عيونا وأرصادا في عواصم الأقاليم العربية نقلت له  
صورة الضعف والانقسام التي يمر بها حكم السلطان فرج بعد وفاة أبيه .  
فلم يلبث أن هاجم الأقاليم الشمالية من مناطق السلطنة بعد اعتدائه على  
بعض بلدان المملكة العثمانية . وكان مجرم الحرب الغادر تيمورلنك يعتمد  
الجلافة في الرسائل التي يبعثها إلى الملوك ليقوع الخوف في قلوبهم كما  
كان رهيبا في المذابح التي يرتكبها في المناطق التي يحتلها ولا يقنع بما هو  
أقل من تعذيب الأهالي ونهب الممتلكات وحرق المدن وكان من أقسى  
الذين ابتدعوا سياسة الأرض المحروقة في جميع العصور ( باستثناء  
الاحتلال الإسرائيلي والأمريكي طبعاً ) .

وبينما أصبحت حلب مهددة بالخطر الوشيك كان السلطان يعاني ازدياد  
تنافس الأمراء والفتن . فضلا عن قلة ما في الخزينة والاضطرار إلى  
الاستيلاء على ما لا يصح .

وراح تيمورلنك المخادع يتحايل لصرف أمراء الشام عن القتال ويستغل حالة  
الخوف التي دبت في صفوف الكثيرين جراء تأخر السلطان عن الغوث ،  
ثم هاجم تيمورلنك حلب الشهباء التي اجتمعت فيها جيوش أمراء المدن  
واستطاع أمير طرابلس أن يتصدى له ويعوق تقدمه إلا أن (( فقدان  
التعاون بين الأمراء أضع الكثير من الفرص وعرض سوريا للضياع ))  
كما يقول كتاب قيام دولة المماليك الثانية . ويضيف (( من المخجل أن  
يختلف الأمراء وقتئذ على الزعامة )) ويذكر أيضا أن تيمورلنك كان يتقن

أساليب الحرب النفسية واستخدام الإشاعات الكاذبة لكسب المواقف وإضعاف المعنويات .

ماذا كانت نتيجة تأخر النجدة الكبيرة .. وعدم وجود التعاون بين الأمراء .. والتنافس على الزعامة هنا وهناك .. وإرهاق الجمهور بالغرامات المالية !؟

وأرسل السلطان التركي العثماني بايزيد إلى فرج يعرض عليه التعاون على سبيل صد تيمورلنك ، ولكن فرج لم يوافق لسبب يتعلق بموقف سابق غير حميد سبق أن وقفه بايزيد . في حين أن المناسبة كانت مختلفة وكانت المصلحة تقضي بتشكيل جبهة واسعة لمقاتلة العنصر المغولي الطامع في الجانبين .

لقد وقع قتال بين الجيوش الوطنية وبين الغازي الأجنبي مدة أربعة أيام . وكان القتال مرهقا للأهالي ولكن ظلوا صامدين إلى أن عمد تيمورلنك إلى واحدة من حيله الخادعة فأعلن عن تأمين الجمهور ومن معه من القضاة والأعيان . ولندع كتاب التاريخ يتحدث بلغته (( وبعد أن اطمأنوا إليه أمر بحبسهم ثم سيق إليه من بقي من نساء حلب سبايا وبعد أن أخذ الأموال والجواهر والآلات الفاخرة وزعها على أخصائه وأمرائه ثم أباح اللنهب والسلب والقتل في من بقي من أهالي حلب ثم أمر بقطع الأشجار وهدم البيوت وإحراق المساجد حتى جافت حلب من القتلى وصارت الأرض فراشا من الجيف لا يجد الشخص مكانا يمشي عليه إلا وتحت رجليه رمة وتسلى تيمورلنك برؤوس القتلى فجعل منها منائر عدة مرتفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعا !! )) . وينعي بعض المؤرخين على حكام حلب سوء تدبيرهم مع قلة عدد عساكرهم ويقول آخرون إن بعض الأمراء أثار الفتنة بين التركمان والعرب .

وعندما وصل تيمورلنك قرب دمشق ليغزوها وكان السلطان فرج قد سبقه إليها قبل برهة أراد تيمورلنك أن يستفيد من التلاعب بأعصاب خصمه فأرسل إليه رسالة يكرر فيها مطالباته التي كانت تتلخص في الإفراج عن أسير من أقارب تيمورلنك وأن يسك النقود باسمه وأن يذكر اسمه في خطب المساجد . وقد نجحت خطة التهويش التي استخدمها السفاح فإذا بالسلطان فرج يحتفي برسول تيمورلنك ويرسل معه إلى تيمورلنك الهدايا القيمة ويبلغه أنه سيفرج عن الأسير خلال خمسة أيام . وهكذا لمس تيمورلنك علامات الضعف فزحف على غوطة دمشق فسلمت له دون قتال . وإذا بالسلطان يرسل إلى تيمورلنك كتابا ثانيا بموافقته على الصلح مع الاعتذار عن هجوم كان قد قام به بعض الأمراء في الليلة السابقة فما كان من الطاغية إلا أن تمادى وقد لمس ضعف الخصم . وزاد الأمر سوءا أن بعض أمراء فرج اختفوا وتبين أنهم سافروا إلى مصر وتبعهم فوج آخر على آثارهم واجتمعوا في القاهرة بغرض التآمر على سلطانهم هناك . فما كان من فرج وأعوانه إلا أن غادروا دمشق ليتصدوا لمؤامرة المتآمرين .

أما أهالي البلد والعساكر فإنهم أغلقوا أبواب دمشق وركبوا أسوارها ونادوا بالجهاد . وتصدوا للعدو ما وسعهم التصدي . وقد أبلوا في البداية بلاء حسنا وعمد تيمورلنك إلى الخدعة فطلب الصلح على أن يقدم له أهل دمشق من كل نوع من الأكل والشراب والدواب والملابس والتحف تسعة ويسمي الالتتار ذلك ( طقزات ) ! فأسرع قاض يدعى ابن مفلح وقبل العرض وتمكن من إقناع العامة بوقف القتال . وقد مانع قائد المقاتلين في السور في ذلك ولكن ابن مفلح خرج ومعه وفد من القضاة إلى معسكر تيمورلنك فرحب بهم وعينهم في وظائف عدة وردهم إلى أهل دمشق وقد

اعطاهم وثيقة أمان قرئت في الجامع الأموي ففتح الباب القبلي في السور ودخلت عساكر تيمورلنك إلى المدينة .

وتتكر الطاغية المجرم لعهوده ووثائقه وأطلق عساكره تنهب وتخرب وتفعل الفواحش على نحو أشنع مما حدث في حلب . ويقول المؤلف الدكتور حكيم أمين نقلا عن المؤرخين ومنهم ابن تغرى بردي وابن العماد والمقريزي والغريب أنه (( قبض على ابن مفلح وزملائه وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحراراتها وسككها وبعد أن قسم المدينة على أمراءه ونزل كل أمير بقسمه أوعز إليهم ليمارسوا أصناف التعذيب الذي لا يزيد عليه إلا تعذيب تيمورلنك القرن الحادي والعشرين في سجن أبوغريب .

ودك تيمورلنك معالم الحضارة وأشعل النار بها في يوم عاصف وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها .. ولم تعد البلد غير أطلال بالية .. وجزير بالذكر أنه لم يكتف بذلك بل أخذ معه أشهر المعماريين إلى سمرقند عاصمته واستخدمهم في تجميل عاصمته )) .

أليس من المظاهر المشهودة اليوم أن الغرب يسلبنا . بالإضافة إلى ثرواتنا . أفضل أبنائنا المتعلمين الذين عليهم المعول في النهوض ببلادنا ؟ وهل اختلف الطغاة على مر التاريخ !؟